

# تذهيب المخطوطات في الفن الاسلامي

للدكتور زكي محمد حسن

الخامس عشر وفي القرن السادس عشر) ، حين طفت العناية في الاتزان والدقة وتوافق الألوان .

ولا ريب في أن تعظيم القرآن الكريم كان يبعث كثيرين من الفنانين على العناية بتذهيب المصاحف ، وكان لتذهيب المخطوطات صلة وثيقة بكتابتها بالخط الجميل ، فعنى القوم بهذا الفن ، وذهب بعضهم إلى القول بأن الإمام علي بن أبي طالب كان أول من ذهب مصحفاً ، وبأن كثيرين من الأمراء وعيلية القوم نسجوا على منواله ، فأتبع الخطاط المشهور محمد بن علي الراوندي (المتوفى في نهاية القرن السابع الهجري ، والثالث عشر الميلادي) أن يقصر عن خلق عنه فن التذهيب من الأمراء والعلماء وكبار رجال الدين والأدب . وإذا تذكرنا أن التذهيب كانوا يحتاجون في صناعتهم إلى بعض المواد الثمينة كالذهب وحجر اللازورد والورق الفاخر ، أدركنا ما كان لعناية الأمراء والأغنياء من عظم الشأن في فن تذهيب المصاحف والمخطوطات .

وليس غريباً أن يصيب الإيرانيون خاصة والمسلمون عامة أبعد حدود التوفيق في تحلية المصاحف بالرسوم وتذهيبها ، فإن هذه الفنون الزخرفية تتفق مع ميولهم واستعدادهم ، حتى أصبحت زخارف المصاحف الذهبية تلازم تنقل عنها الرسوم في الصحف المدنية والحرفية والجمية ، وفي التمجيدات والسجاد . وكلما توسل مؤرخو الفن بفضل ذلك إلى معرفة قسط وافر من تطور الرسوم والزخارف والمصور التي تنسب إليها ، لأن عدداً كبيراً من المصاحف والمخطوطات الذهبية يحمل تاريخ إنتاجه ، وربما كان فيه أيضاً اسم الخطاط والمذهب ، والبلد الذي كتب فيه المخطوط .

عرف المسلمون منذ القرون الأولى بعد الهجرة تزيين المخطوطات بتذهيب صفحاتها . بل إن ذلك لم يكن عندهم أسراً نادراً كما كان عند الغربيين في العصور الوسطى .

وأعظم المخطوطات الاسلامية شأناً من الوجهة الفنية هي المصاحف التي كانت تكتب بين القرنين الرابع والسادس بعد الهجرة (المأخر والثاني عشر بعد الميلاد) ، والتي كانت تذهب وتزين بأدق الرسوم وأبدعها . ولا غرو فقد كان الفنانون الذين يزيتون المصاحف المكتوبة أرفع الفنانين قدراً بعد الخطاطين أنفسهم ؛ وكان الذهب أعظم أولئك الفنانين شأناً . وحسبنا دلالة على علم مكانته أن كثيرين من المصورين كانوا يضيفون إلى أسمائهم لفظ « مذهب » ، وأن المؤرخين كانوا يسمون بالنص على أن بعض المصورين كانوا مذهبين أيضاً .

وأكبر الظن أن الخطاط كان يتم عمله قبل كل شيء ، ولم يكن يفوته أن يترك الفراغ الذي يطلب منه في بعض المصاحف لترسم فيه الصور المطلوبة بعد ذلك . وقد وصلنا بعض مخطوطات لم تتم بها الرسوم في كل الفراغ المتروك . وكان الخطوط يسلم بعد ذلك إلى فنان إخصائي في رسم الموامش وتزيينها بالزخارف ، ثم إلى آخر تذهيب هوامشه وصفحاته الأولى وصفحاته الأخيرة وبداية فصوله وعناوينه ولغير ذلك من الزخارف المتفرقة . وفي الحق أن الرسوم النباتية والهندسية الذهبية كانت تصل في المخطوطات الثمينة إلى أبعد حدود الاتقان ، ولا سيما في القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة ، ( نهاية القرن



وكان كل جزء منها يكتب في مجلد على حدة . ويعتاز هذا الجزء - كسائر المخطوطات المقلية الذهبية - بالإبداع في الرسوم والألوان ، فهو غني جداً بالرسوم الهندسية المختلفة ، وبين نجوم على أشرب شتى ومثلثات ودوائر متشابهة ، وغير ذلك من الأشكال الملونة برسوم النبات والأرابيسك . ومما يزيد إجمالاً هذه الزخارف الهندسية أن الإيرانيين عامة لم يكن لهم فيها مهارة خاص بل كانوا يقلون على سائر العناصر الزخرفية أكثر من العنصر الهندسي ، ومع ذلك فقد أنفقوها في هذا الصنف إنفاقاً عظيماً .



صفحة مذهبة من مخطوط إيراني في العصر العثماني

ولستخدم المذهبون في العصر الممولى اللون الذهبى والأزرق والأخضر والأخضر والبرقلى ، وكانوا يتخذون الأزرق الفاتق مركزاً تحيط به سائر الألوان .

ولم يعد تزيين الصفحات في القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) مقصوراً على الـ « سرلوح » أى الصفحة أو الصفحات الأولى المغطاة بالزخارف الذهبية ، وعلى العناوين وعلى الجملات (النطاق) التى كان يكتب فيها اسم صاحب المخطوط ، وعلى النجوم الزخرفية الذهبية التى كانوا يسمون الواحدة منها « شمس » ، بل صارت الهوامش تزين برسوم الزهور والنبات والحيوان ، وبالرسوم الأدبية فى بعض الأحيان .

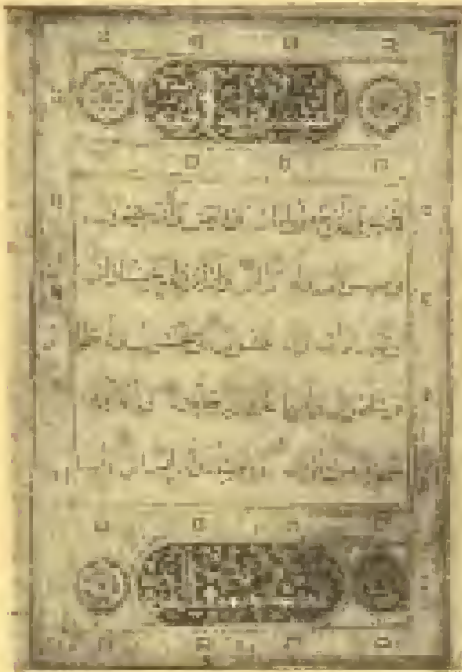
أما زخارف الصفحات الذهبية فكانت فى البداية خليطاً من العناصر الزخرفية السامانية والبيزنطية والقبيلية ، فضلاً عن الرسوم المنقولة من كتب اليهود وكتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية .

على أن أقدم المخطوطات الذهبية التى يمكن نسبتها إلى إيران ترجع إلى عصر السلاجقة ، وتتناز باستعمال الورق فى معظمها ، وبأنها مكتوبة بالخط النسخى ، وبأنها مستطيلة الشكل ، وأن ارتفاعها أكثر من عرضها . ومن الرسوم التى يكثر استعمالها فى هذه المخطوطات النجوم السدسة أو الثمينة والأرواح التخيلية (الملك) والفروع النباتية المتصلة (الأرابيسك) . وقد بدأت فى عصر السلاجقة طريقة جديدة فى الزخرفة والتذهيب ، وظلت قائمة فى العصور التالية ، وقوام هذه الطريقة أن تحاط سطوح الكتابة بمخطوط دقيقة ، وأن تملأ الصفحة خارج هذه المخطوط بمختلف الرسوم النباتية و « الأرابيسك » .

أما عصر القول فظل أبداً مخطوطاته الذهبية جزء من مصحف محفوظ فى دار الكتب العسرية . وقد كتب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) - بمدينة همذان للسلطان الجايتو خدابنده ، ويبد خطاط اسمه عبد الله بن محمد بن محمود الهنداوى . وهو من نوع المصاحف الكبيرة الحجم (٥٠٥٠٠ سفيماً) التى كانت تقدم للأشربة والساجد ،



وقد ترك لنا بعض المؤرخين الأيرانيين أسماء أعلام الذهب في العصر الصفوي ، مثل باري وميرك الذهب وابنه قوام الدين مسعود ومولانا حسن البغدادي ومولانا عبد الله الشيرازي .



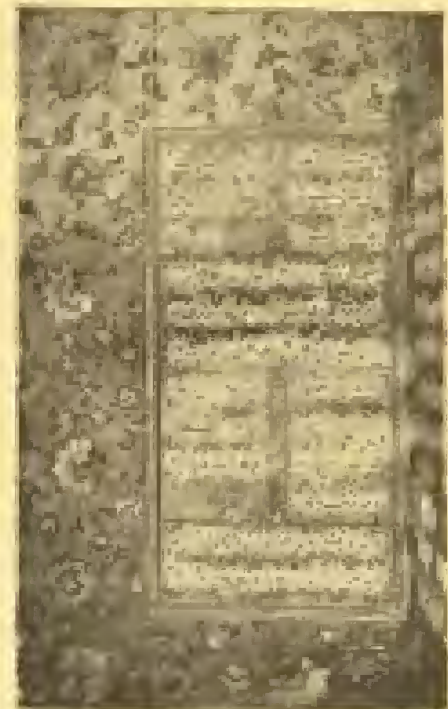
صفحة مدغمة في إنجيل من عصر آلإيلك

ولم يكن عمل الذهبين في هذا العصر مقتصراً على تزيين الصفحات الكثيرة والرسومة ، بل كانوا يدهيئون هوامش الصفحات الصورة . وامتازت المخطوطات الصفوية بتعدد الصفحات الذهبية في أول المخطوط وبثمة قليل رسوم الفروع النباتية النعيلة (الأرابيسك) ذات الوديفات البقية ، ورسوم السحب الصينية ، كما امتاز بعضها برسوم حيوانية مذهبة في هوامش الصفحات ، على النحو الذي زاء في مخطوط منظومات الشاعر نظامي المخطوط في المتحف البريطاني ، والتي كتب لثناء طهماسب بين عامي ٩٤٦ و ٩٤٩ بعد الهجرة (١٥٣٩ - ١٥٤٣) . ومن أبداع الصفحات الذهبية في العصر الصفوي ما زاء في صدر مخطوط «بستان» سفي المخطوط في دار الكتب المصرية والتاريخ سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) . وعليه إضفاء الذهب «باري» ؛ ومن زخارفه رسم بطة تطير بين سحب صينية ،

وزاد ازدهار فن الذهب في العصر التيموري ؛ فتنة مخطوط من الشاهنامة مؤرخ سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٧ م) يقال إن فيه صورة الخطاط والذهب والمصور الذين اشتركوا في إنتاجه ، وصورة السلطان بابنفر الذي قدموا إليه هذا المخطوط ، مما يدل على الاعتراف بفضل الذهب في إخراج المخطوط الفني ، وعلى أنه كان يقرن في هذا الشأن برمييه : الخطاط والمصور .

ومن أعلام الذهبين في ذلك العصر أمير خليل وميرك ونقاش ، ومولانا حاج محمد نقاش الذي كانت خطاطاً ثم مذهباً ثم مصوراً ، بل إنه اشتمل أيضاً بالحيل اليدوية وتقنيات الحرف الصيني .

وقد زاد الاقبال على رسوم النبات والزهود والطبيعة زيادة عظيمة في العصر التيموري ، فكانت تزين هوامش الصفحات ، كما استعملت في زخرفة التحف الفنية المختلفة . والواقع أن العلاقة وثيقة جداً بين رسوم الصفحات الذهبية في العصر التيموري والرسوم الشتملة في سائر ميادين الفن من حرفة وسجاد وجلود كسب .



صفحة مدغمة من مخطوط إيراني في العصر الصفوي





صفحة مذهبة في مصحف من عصر المايك

وكان تذهيب المخطوطات في تركيا شديد التأثير بفن التذهيب في إيران . كما أن الفنانين في الأندلس والمغرب الأقصى كانوا لا يختلفون كثيراً عن الفنانين المصريين في أساليبهم الفنية في هذا الميدان .

زكي محمد حسن

ومن من الرسوم الحيوانية النادرة في الصفحات المذهبة والمزينة برسوم متعددة الألوان .

ولم يدخل على أسلوب التذهيب تغيير كبير منذ العصر الصفوي ، اللهم إلا أن الألوان المستعملة قل غناها وحنانها ، بينما أصبحت الدقة في رسم الزخارف نادرة . وكان هذا كله طبيعياً بعد أن فقد الفنانون قسطاً كبيراً من رعاية الأمراء ، وبعد أن اتصلت إيران بالعالم الغربي ولم يعد المخطوطات ما كان لها قبل ذلك من عظم الشأن .

أما في مصر فإن أبداع الصاعف المذهبة فيها ترجع إلى عصر المايك ، وتتنازع رسومها الهندسية الجميلة ، كما يظهر من المجموعة الطيبة المحفوظة في دار الكتب المصرية . بل إن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفاً على الصاعف والكتب الإسلامية فحسب ؛ فقد كان الأنجليس والكتب الدينية المسيحية تذهب وتزين صفحاتها بالرسوم الهندسية والنباتية العربية الطراز ، كما رى في بعض المخطوطات الثمينة المحفوظة في التحف القبطية .

## بجته التأليف والترجمة والنشر

# كتاب الإمتاع والمؤانسة

تأليف أبي حيان التوحيدى

طبعه وصححه وعلق عليه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين .

والكتاب مجموع مسامرات ساهم بها أبو حيان الوزير أبا عبد الله العارض .

وفد ظهر منه الجزء الأول وثم عشرة قرشاً صاغها عدا أجرة البريد . ويطلب من لجنة

التأليف ومن المكاتب المشهورة .